حنين غريب!!

للأديب محيي الدين صابر

مضى الركب، يا قلبي، فأين حبائبي
وأين مجالاتي؛ وأين مذاهبي؟
وأين الربيع الحلو؟ قد مات في يدي
وصوّح إلا صورةً في رغائبي
وأين العشيات الرطاب؟ عبرتني
كما تعبر الصحراء، غنوةُ راكب!
وأين غدي؟ إني دفنت خياله
على جدولٍ في منهل الغيب ساكبِ!
ويومي؟ لقد كفنته ... في دموعه
بوادٍ حزين الظل سأمانَ شاحب!
وعشت فضاءً ناعساً خلف ربوة
على سفحها المحرومِ، أغفت ركائبي
ملالٌ طريدٌ ... أو سآمةُ مدلجٍ
ويأسُ شقيٍّ ... أو تثاؤبُ شارب!
فيا موكب الأحزان عطلت فرحتي
وشردت أنغامي وأضرعت جانبي!
وأطلقتني في الليل؛ كالليل ذاهلاً
حنيفاً ... كأني فيه دمعةُ راهب!
وأفردتني كالنجم حيران ساهراً
كأني على دنياك ... لفتةُ هارب!
وأظمأتني حتى من الوهم ... في دمي
وكان كثيراً، كالحياة، مشاربي ...
وأفقرتني حتى المنى ... ما تزورني
وكانت يد الأقدار تثني مطالبي!
وأشقيتني يا ذلَّ روحي، على الذرى
وضيعةَ أيامي؛ بوادي المصائب
تمر بي الذكرى؛ فأجثو كأنني
ضميرُ نبيٍّ ... أو ضراعةُ تائب
فتنثر أفراحي، على جمر مهجتي ...
كما تنثر الأشواقَ دمعةُ عاتب

أحدّثها كالطفل حين تهزّه ...
طرافةُ لهوٍ، أو مجانةُ صاحب!
وأبكي كما يبكي الغريبُ قد التقى
بسامره — بعد النوى — والحبائب!
وأعذرُ دمعٍ ... دمعةٌ كرمت بها
محاريبُ أشواقٍ — خلت — وملاعب!
أحسُّ حياتي في التراب صريعةً
تساقط من روحي، كأنفاس لاعب
وأغمض عيني أستعيدُ مباهجي
وأخدعُ حسّي في الليالي الذواهب
ليالي أشباه حياتي ... على الهوى
فيوني ندى الأفق ... رطب الجوانب
وليلى أنغام، وخمرٌ وفتنةٌ،
وسُمّار صدقٍ ... كالأماني الكواذب!
فمدن كأن الكأس دمعٌ شربته
وأن صدى الألحان صرخةُ نادب
على مهجتي، ماضٍ عدتني ظلاله
وصار حصيداً بين فأسٍ وحاطب
حنينٌ كدفق الموج يسري بخاطري
فمن نازعٍ منه عنيفٍ، وسارب!
وأصبحت كالطير الغريب مفزعاً
على فننٍ باكٍ المشيات، ناحبِ
فيا منهلاً عذباً وردت على الصبا
أنيقاً كوجه الروض تحت السحائب!
سلامٌ على عهدي بواديك إنه
هو الزاد، في عهد النوى ... والنوائب
ويا غربتي نوحي على طربي
كرجفة غابٍ في السواقي الحواصب
وهبّي على عمري، وسوقي زمانه
وذرّيه في أفق، على السفح غارب
فلا خير في عمرين، ذكرهما أسىً
فمن بين مجهول، وآخرَ ذاهبِ
وحسبك أن تأسى على ما عرفتما
وتجزع من مستحدثٍ في العواقب